مجلة الدراسات التربوية والعلمية - كلية التربية - الجامعة العراقية
العدد الحادي والعشرون - المجلد الخامس - التاريخ - حزيران 2023 م
doi.org/10.52866/esj.2023.05.21.17

اثر ظواهر الاختلال الاجتماعي على الاوضاع العامة في مصر خلال عصر المماليك الشراكسة (784 - 923 هـ/ 1382 - 1517م)

الاستاذ الدكتور عبدالرحمن فرطوس حيدر ، المدرس المساعد ايمان منذر احمد
جامعة بغداد/ كلية الآداب جامعة بغداد/ كلية الآداب

مستخلص:

يعنى هذا البحث في دراسة اهم الظواهر التي احدثها الاختلال الاجتماعي، مع بيان الاثر الذي نتج عن تلك الظواهر في عصر المماليك الشراكسة (784 – 923 هـ/ 1382 – 1517م)، وقد كان لتلك الاثار نتيجة مصيرية في تاريخ الدولة متمثلة بزوالها نتيجة السلوكيات السلبية، وغياب الامن المجتمعي نتيجة السرقات والفواحش، فضلاً عن غياب الوحدة الوطنية التي هي عماد الدولة.

الكلمات الافتتاحية: المماليك، الشراكسة، الاختلال الاجتماعي، المقريزي.

The Effect of the Phenomena of Social Disruption on the General Situations in Egypt during the Circassian Mamluks Period (783 – 923 AH / 1382 – 1517 AD)

Assistant Teacher: Eman Monther Ahmed ، Prof. Dr: Abdul-Rahman Fartoos Haider

Abstract :

This study is concerned with studying the most significant phenomena caused by social disruption in Egypt, and bringing to light the effect following from these phenomena in the Circassian Mamluks period.

These effects had a decisive impact on the history of the state represented by its demise due to the negative behaviours and social insecurity which led to robberies, banditry and abominations. Moreover, the national unity, which is the basis of the state, was absent.

Keywords: The Mamluks, The Circassians, Social disruption, Al-maqrizi.

المقدمة

تعد الظواهر الاجتماعية من أبرز سمات المجتمع الإسلامي ، كونها تسلط الضوء على جانب مهم وحيوي في مسيرة الدولة ، وكلما كانت الظواهر إيجابية كانت الحياة الاجتماعية آمنة وإيجابية ومؤثرة ولها تأثير على المحيط الخارجي ،لذلك كان هذا البحث المسمى ((أثر ظواهر الاختلال الاجتماعي على الأوضاع العامة في مصر خلال عصر المماليك الشراكسة)). الذي يعنى في دراسة الظواهر الاجتماعية السلبية التي أثرت على وحدة المجتمع وتماسكه في ذلك العصر ، وهذه الظواهر لم تأت من فراغ بل جاءت في ضوء شواهد ودلائل .

جاء البحث على ثلاثة مباحث ، فالمبحث الاول اختص في دراسة خطورة الاختلال الاجتماعي في التماسك المجتمعي ، وهو من أخطر المظاهر التي هددت السلم المجتمعي في كل العصور الإسلامية وعلى وجه الخصوص المماليك الشراكسة البرجية . والمبحث الثاني اختص في دراسة فقدان الأمن المجتمعي ، لان غياب الأمن هو غياب الحياة الآمنة المطمئنة، وخاتمة المباحث غياب الوحدة التي تحت خيمتها يكون الناس آمنين على أنفسهم .

وقد رجع البحث إلى عدد كبير من المصادر المعاصرة للحدث التاريخي للخروج بصورة وافية المعالم عن تلك المظاهر .

أولاً: خطورة الاختلال الاجتماعي في التماسك المجتمعي

ان الدولة المملوكية في عصرها الاول كانت قوية بسبب تمسك المجتمع بالأخلاقيات من المثل الاسلامية العليا، ومحبة وتمسك السلاطين بدينهم بغض النظر عن كونهم ارقاء، ثم بدأ ينحرف شيئاً فشيئاً لجملة امور يطول شرحها حتى وصل الى مرحلة انتشاء سلوكيات مرفوضة وغير مقبولة مما ادى الى ضعف المجتمع وبالتالي تفككه ثم سقوطه.

مما لا شك فيه ان لظواهر الاختلال الاجتماعي اثرا سلبياً على الفرد والمجتمع على حد سواء، وتبرز اثاره السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي نتج عنها كره العامة للسلاطين لا سيما ان المجتمع المصري في العصر الشركسي عانى كثيرا من الحكم المملوكي، بسبب انعدام الأمن والاستهتار بالمراسيم السلطانية، فكثرت عمليات النهب والسلب وتدهور النشاط الاقتصادي وانعكست اثار الظواهر الاجتماعية على العامة وبشكل كبير.

وجاءت خطورة الاختلال لتؤثر في التماسك المجتمعي، بحكم البنية الاجتماعية المختلفة التي كان يعيشها المماليك، وعدم اختلاطهم بسكان مصر، والتزاوج منهم، مما انتج بيئة مختلفة في اهدافها ومظاهرها عن المجتمعات التي افرزتها نظم الحكم السابقة، واشهر ما انفردوا به ابتعادهم وترفعهم عن الناس، اذا كانت صفة العصبية هي ابرز صفة تميزوا بها، وما يفسر ذلك هو الواقع السياسي المضطرب لهذه الدولة، وما تخلله من حروب وفتن انعكست على الحياة الاجتماعية التي عاشها المماليك، مما كان سبباً في تعكير صفو الحياة الامنية والاقتصادية والادارية[1].

ويتألف التركيب الاجتماعي الطبقي في هذا العصر وحسب ما قسمه المقريزي الى سبع طبقات

(1) محمد سهيل طقوش: تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، دار النفائس للطباعة والنشر، (بيروت، 1997)، ص 7 – 8؛ سعيد عبدالفتاح عاشور: المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، دار النهضة العربية، (القاهرة، 1976)، ص31.

فيقول ((اعلم ان الناس بإقليم مصر في الجملة على سبعة اقسام: القسم الأول اهل الدولة، والقسم الثاني: آهل اليسار من التجار، واولي النعمة من ذوي الرفاهية، والقسم الثالث: الباعة وهم متوسطو الحال من التجار، ويقال لهم اصحاب البز ويلحق لهم اصحاب المعايش وهم السوقة، والقسم الرابع اصحاب الفلح وهم اهل الزراعات والحرق، وسكان القرى والريف، والقسم الخامس الفقراء وهم جل الفقهاء وطلاب العام والكثير من اجناد الحلقة ونحوهم، والقسم السادس ارباب الصنائع والاجراء وارباب المهن، والقسم السابع ذوي الحاجة والمسكنة وهم السؤال الذين يتكففون الناس ويعيشون منهم))[1]، ويتضح من النص السابق ان المجتمع كان مجتمعاً طبقياً، وكانت هذه الطبقات متفاوتة من حيث الدخل والاستقرار والمراكز السياسية والادارية.

ولا يفوتنا ان ننوه ان المماليك كانوا طبقة عسكرية حاكمة مستبدة بكل الامور ولاسيما شؤون الحكم، وانطلاقا من ذلك نظروا الى افراد الطبقات الاخرى على انهم اقل مكانة منهم، والى عامة الناس نظرة استعلاء وتكبر وتسلطوا عليهم وآنقوا من الاختلاط بهم، وكونهم طبقة عسكرية منعزلة عن الناس وعدم اختلاطهم قد جعل سورا يحيط بهم وصارت لهم خصائص تعزلهم عن المحيط الذي تعيش وسطه[2].

وعلى هذا الاساس اوجد التقسيم الطبقي حالة من اختلال في التماسك المجتمعي فقد عانت الرعية التي تشمل المجتمع المصري المغلوب على امره من الظلم والكبت والارهاق، وقد بين احد المؤرخين المعاصرين للحدث ما آل اليه امرهم ((ليس لهم الا نهب البضاعة، يتقوون على الضعيف ويشرهون حتى في الرغيف، جهادهم الإخراق بالرئيس، وغزوهم في التبن والدريس... ولا مروءة لهم والسلام))[3]، وبذلك فقد وجدت فئتان متباينتان تمام البيان، ولذا شهدنا كيف كانت الطبقة الحاكمة ومن اليها واسعة السلطان موفورة القوة، متعالية العيش متأثرة بأسباب الجاه والثراء، بينما اكثر الطبقة من المحكومين تعيش في هوان وحرمان، وفي ذلة وضعف، مكبوتة الآمال، محدودة التطلع، لا حول ولا قوة لها على جلب الخير لنفسها، او دفع الضرر عنها[4].

ادت هذه الطبقية التي عاشها المماليك الى تشتت المجتمع وانفصال طوائفه وفئاته المختلفة وقد اوجدت بسبب ذلك فجوة بين الحكام والمحكومين، مما ترك اثره على المجتمع ، وقد بدا العصر وكأن له وجهين: وجها خارجيا له وهجة وعظمته، ووجها اخر داخليا له شدته وقسوته، وقد بدا الوجه الاول خطورته على كيان الامة :وجودها ودينها وحضارتها طاغيا على الوجه الاخر، فقد عاش الناس ايام المماليك يجترون آلامهم وآمالهم، ويشكون ويكتمون، فالمماليك الذين حاولوا بين المغول ومصر، وردوهم على اعقابهم مدحورين، وطردوا الصليبين الطامعين

(1) المقريزي، ابو العباس تقي الدين احمد بن علي المتوفي (ت 845هـ/ 1441م): إغاثة الامة في كشف الغمة، تحقيق كرم حلمي فرحات، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، (القاهرة، 2007م)، ص١٤٧.

(2) سعيد عبد الفتاح عاشور: المجتمع المصري، ص٣١.

(3) ابن تغري بردي، ابو المحاسن جمال الدين يوسف (ت 874هـ/ 1469م) : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب المصرية، (القاهرة، 1956م)، ج 7، ص 329.

(4) محمود رزق سليم: عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والادبي، مكتبة الآداب، (القاهرة، 1965)، ج 8، ص 214.

عن الشرق بعد معارك كثيرة ضارية، هؤلاء بدلوا وجه الحياة تبدلاً ملحوظاً، فقد ضعف في عصرهم التماسك الاجتماعي، واستكان الناس تحت تير الظالمين وسياطهم وخارت الاخلاق الاجتماعية الفاضلة[1].

وكانت اولى سياسة اتبعها السلاطين هي جمع الاموال، والتي تفنن الحكام المماليك في جبايتها تحت حجج مختلفة، والتي جاءت اثارها السلبية على بسطاء الناس، ومنذ بداية قيام دولة المماليك استحدثت العديد من الضرائب واخذت اسواق البلاد تعاني من الضرائب التي تضاعف عددها وازدادت فيها على مر السنين[2].

وقد برع السلاطين في ابتكار اساليب جمع الاموال؛ اذ فرضت ضرائب طارئة من حين لأخر، وكانت هذه الضرائب الطارئة لا تقل من حيث ضررها عن طرح البضائع او التسعير التعسفي، لذا توجب على التجار دفع الضرائب الطارئة التي كانت تزيد بشكل مطرد مع زيادة معدل التدهور في مالية الدولة، ومن الطبيعي ان تسهم هذه الضرائب في ارتفاع الاسعار من جهة، وزيادة معدلات الغش والسرقة في الموازيين و المكاييل من جهة ثانية[3].

ومن الجدير بالذكر ان الحكام المماليك عملوا على تقنين جمع المال من الناس حتى ما يتم جمعه في صورة (ديوان البذل) حيث اتبع نظام البراطيل وهو ما جعل الرشوة امرا مقننا، وهو نظام القى بأثاره السلبية على النظام الاقتصادي وانعكس سلبا على حياة المجتمع، فلقد كان للبذل والبرطلة التي شهدتها البلاد، اثارها السلبية ولاسيما على الريف، فقد نتج عن ذلك ان خربت معظم الاراضي الزراعية بسبب هروب اغلب الفلاحين وزراع الاراضي، بسبب ما تعرضوا له من شتى انواع المغارم والمظالم على ايدي اتباع السلطة الذين صدرت لهم الاوامر بجمع المال بشتى الطرق والوسائل[4]، والادهى من ذلك ان السلاطين اصدروا المناشير والتواقيع و الاوامر، بعدم السماح للفلاح بركوب الخيل او شراء سلاح وان لا يحملوا العصا، بالإضافة إلى قيود اخرى حتى في نوع الملابس التي يلبسونها[5]، وهذا ان دل على شيء فإنه يدل على النظرة الاجتماعية المهينة التي ينظر بها الحكام المماليك الى الفلاحين الذين يشكلون غالبية المجتمع المصري.

وزاد من حال العامة سوءا كثرة المغارم التي حلت بهم من الحكام والولاة ومن القائمين على عملية الجباية الذين عمدوا الى استخدام القسوة والعنف المفرط احيانا مع الفلاحين الذين يسددون او يتأخرون عن السداد دون مراعاة لظروفهم[6]،

(1) شفيق عبدالرزاق ابو سعدة: شعر الخصاصة في شعر العصر المملوكي، دار الطباعة المحمدية، (القاهرة، 1991م)، ص6.

(2) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، (بيروت، 1997م)، ج1، ص477؛ قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، (مصر، 1998م)، ص246.

(3) ابن الصيرفي، علي بن داوود الجوهري (ت 900هـ/ 1494م): انباء الهصر بأبناء العصر، تحقيق حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة، (مصر، 2002م)، ص261.

(4) المقريزي: السلوك، ج1، ص554؛ الجبرتي، عبدالرحمن بن حسن المتوفي (1237هـ/ 1821م): تاريخ عجائب الاثار في التراجم والاخبار، دار الجيل، (بيروت، د. ت)، ج1، ص582؛ مجدي عبد الرشيد بحر: القرية المصرية في عصر سلاطين المماليك، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (القاهرة، 1999م)، ص372.

(5) عماد بدر الدين ابو غازي: تطور الحياة الزراعية، زمن المماليك الجراكسة، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، (مصر، 2000م)، ص65.

(6) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج8، ص205، ابن

ولا يفوتنا ان ننوه الى الاثر السلبي الذي تركته الازمات والكوارث على الصعيد الاجتماعي، حيث تخلخل البناء الاجتماعي بشكل حاد نتيجة لتدهور الوضع الاقتصادي لكثير من الشرائح الاجتماعية، وكان من الطبيعي ان يحدث هذا التخلخل في اعقاب الاوبئة والمجاعات اذ كانت هناك اعداد كبيرة تعاني لتجد ما تقتات به ومن ثم يدخلون في عداد المعدمين، وتجدر الاشارة الى العبارة التي جسدت مدى ما وصل اليه التخلخل في البناء الاجتماعي في مصر والتي ذكرها ابن الصيرفي اثناء حديثه سنة (875هـ/ 1470م) اذ قال ((اما الناس فصاروا ثلاثة : الغني افتقر والمكتسب ما يفي بنفقته والفقير فبعد ان كان يسأل في الرغيف صار يطلب لقمة او لبابة))[1].

ومن الجدير بالذكر ان طبقة العلماء وارباب الاقلام، وعلى الرغم من تعرضها للمهانة احيانا من جانب المماليك الا انها عاشت تنعم بكثير من الامتيازات في هذا المجتمع الطبقي ويبدو ان المماليك قد خافوا على مراكزهم السياسية من هذه الطبقة لانهم يعلمون مدى تأثيرها على المجتمع، واحترام الناس لهم، على ان هذه المكانة التي وصل اليها العلماء لم تمنع بعض السلاطين من التعرض لهم بالنقد والتهكم، فأشترط بعض السلاطين حرمان اصحاب العمامة من ركوب الخيل لانهم في هذه الحالة يتشبهون بالمماليك، وكثيرا ما انسابت جموع المماليك في مصر لتعتدي على العلماء والفقهاء وتجبرهم عن النزول عن خيولهم وسلبهم اياها[2].

اما عن العلاقة مع اهل الذمة فلا يمكن ان نحدد سياسة ثابتة للمماليك تجاههم، فهي بلا شك تختلف حسب سياسة كل سلطان، وتتوقف على مدى التزام اهل الذمة بالعهود و المواثيق التي يجب عليهم اتباعها[3]، ولكن السمة البارزة التي يمكن الاشارة اليها في علاقة المماليك مع اهل الذمة هي انهم كانوا ينظرون اليهم على انهم فئة من فئات المجتمع وشريحة من شرائحه، وكانوا يستعينون بهم في بعض الوظائف الادارية، وكان الاقباط يباشرون بعض الاعمال التجارية للسلاطين[4]، اما عن بعض التصرفات التي تبدو من اهل الذمة، والتي قد تسبب في معاملتهم بالمعاملة السيئة من جانب المماليك، من ذلك مجاهرتهم بشرب الخمر واظهار صلبانهم ودق نواقيسهم[5].

وبدون ادنى شك ان انحرافات الحكام المماليك وتعاليمهم كانت سبباً في بعض مظاهر الانحلال الاجتماعي وعدم تماسك المجتمع ووحدته، لذا فلا غرابة ان يكون المماليك على شاكلة الفساد، وكان الفقر الذي انتشر بين الناس والذي عانت منه الاسر، اذ لم يكن لديها ما تسد به نفقاتها وعزتا عن تلبية حاجاتها فكان هذا الفقر سبباً في حدوث السلوكيات والاخلاقيات الاجتماعية الخاطئة، مثل السرقة والبغاء او الغش وغيرها من السلوكيات.

اياس، محمد بن اياس الحنفي (ت 930هـ/ 1523م): بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، الهية المصرية العامة للكتاب، (القاهرة، 1982م)، ج1، ق1، ص 500 – 501.

(1) ابن الصيرفي: انباء الهصر، ص188.

(2) المقريزي: السلوك، ج7، ص188؛ سعيد عبد الفتاح عاشور: المجتمع المصري، ص32.

(3) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج7، ص324؛ جان سوفاجيه: دمشق الشام، المطبعة الكاثوليكية، (بيروت، 1936م)، ص13.

(4) أ. س ترتون: اهل الذمة في الاسلام، ترجمة حسن حبشي، دار الفكر العربي، (القاهرة، 1947م)، ص84.

(5) المقريزي: السلوك، ج5، ص151.

ثانياً: فقدان الامن المجتمعي

من المعروف ان الاستقرار الامني للبلاد يسهم في الحد من ارتكاب المخالفات، والعكس صحيح، وفيما يخص عصر المماليك الشراكسة فقد شهر تصاعداً مضطرداً في تدهور الامن وعدم الاستقرار[1]، ومن خلال العرض السابق الموجز لأحوال مصر، تظهر طبيعة العلاقة بين حدوث الازمات الاقتصادية وتدهور الامن الداخلي والذي يظهر واضحا في حوادث السرقة التي يقوم بها المماليك والعربان في الاسواق، والى اي مدى كان استخفافهم بالقوانين والنظام، لذا شرعوا في اشادة الفتن وبث شرورهم، ونشر الافكار المنحرفة، فنجد العديد من الجرائم التي ادت الى اختلال الامن واضطراب النظام العام للدولة والتي لم تقتصر على المماليك فحسب بل شملت العامة ايضا[2].

وقد اوردت لنا المصادر حوادث كثيرة تدل على مدى اثر الاضطرابات الامنية في ظهور بوادر الانحراف في المجتمع ففي سنة (824هـ/ 1421م) جار المماليك على الناس، وتعدوا على الاموال العامة وعجز السلطان الظاهر ططر[3] عن كف ايديهم عن الناس، فمنع الافراح سنة (832هـ/ 1428م) خوفا عليهم من شر مماليكه، وقد تكرر ذلك بشكل اخر يمنع مماليكه من الخروج من الطباق في عامي (841هـ/ 1437م) (860هـ/ 1455م)، ولكنهم لم ينفذوا الامر وكانت النتيجة ان ازدادت اسعار المأكولات، وكثر فساد المماليك ونهبهم للدكاكين والتجار[4]، وفي سنة (860هـ/ 1455م) نزل المماليك الى بيوت المباشرين سبب تأخر جوامكهم، فعمدوا الى نهب البيوت، وسرقوا الاقمشة والمتاع والاواني، وكميات اخرى كبيرة، واستمروا في النهب من اول النهار وحتى العصر[5].

كما تعرض اصحاب الحرف والمهن الى هجماتهم، اذ يقومون بالاستيلاء على دوابهم من بغال وجمال لنقل ما ينهبونه من الاسواق او المخازن، وفي ذلك ضرر كبير، لا فقط لأصحاب الحرف، بل لعموم البلاد المصرية بانقطاع الخبز والماء عنهم[6].

وكان التجار عرضة لاعتدائهم المتكرر بنهب البضائع المعروضة واشاعة حالة من الذعر والفوضى، والامتثال بين مختلف طوائف المماليك المتنافسة او بينهم وبين العامة في الاسواق مما اضر بالحركة التجارية في المدينة، فيضطر التجار والحرفيون لتجنب الاعتداءات على اشخاصهم واملاكهم ال اغلاق محلاتهم مما يؤدي الى توقف

(1) المقريزي: السلوك، ج1، ص471؛ المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار، دار الكتب العلمية، (بيروت، 1418هـ)، ج3، ص386؛ ابن اياس: بدائع الزهور، ج1، ق1، ص385.

(2) علاء طه رزق: السجون والعقوبات في مصر عصر سلاطين المماليك، عين للدراسات والبحوث، (مصر، 2014م)، ص66.

(3) ابو الفتح سيف الدين الملك الظاهر ططر، تولى السلطنة سنة (824هـ/ 1421م) وتوفي في السنة ذاتها، للمزيد: ينظر: ابن تغري بردي: مورد اللطافة فيمن ولي السلطنة والخلافة، تحقيق: نبيل محمد عبد العزيز احمد، دار الكتب المصرية، (القاهرة، د. ت)، ج2، ص64.

(4) ابن الصيرفي: نزهة النفوس والابدان في تواريخ الزمان، تحقيق حسن حبشي، دار الكتب، (القاهرة، 1971م)، ج3، ص 160 – 161 – 400؛ احمد عبدالرزاق محمد: عوامل انهيار دولة سلاطين المماليك في مصر، عين للدراسات والبحوث، (مصر، 2017م)، ص167.

(5) ابن تغرى بردى: حوادث الدهور في مدى الايام والشهور، تحقيق محمد كمال الدين عز الدين، علم الكتب، (بيروت، 1990م)، ج1، ص509.

(6) ابن تغرى بردى: حوادث الدهور، ج1، ص109-110.

الانشطة الاقتصادية الحضرية جزئياً أو كلياً[1].

ولعل دولة المماليك الجراكسة في اواخر عمرها قد نفضت يدها تماماً من التعامل مع ارباب الجرائم الجنائية من السراق والمفاسد والمفسدين، ولم تعد السجون وسيلة رادعة لزجر هؤلاء المجرمين الى حد ان الدولة كانت تفرج احيانا عنهم او تحاول التخلص منهم بطرق مختلفة دفعا لخطورتهم على المجتمع ودرءا لأفعالهم الاثمة التي شارك التي شارك فيها بعض الولاة، فيذكر ابن الصيرفي سنة (839هـ/ 1436م) رسم السلطان بعرض جميع المسجونين واطلقهم الى حال سبيلهم، ومن الطبيعي ان يكونوا من ارباب الجرائم وقطاع الطريق والمفسدين والسراق، وبرز المرسوم الشريف للقضاة والولاة اذا وقع عندهم احد ارباب الجرائم فليبادروا الى قتله، وبذلك خلت الحبوس من المسجونين مدة طويلة وقفلت[2].

كما ادت الفوضى وقلة الرقابة الى انتشار بعض الممارسات في عامة مصر، فأستحل المماليك شرب الخمر والمجاهرة بالمعاصي والممارسات غير الاخلاقية، وكثر قطاع الطرق على المسافرين، فانتهكوا الاعراض و ارتكبوا المحارم وتفاخروا بالقبائح من الاعمال، وهكذا افرزت الفوضى الاجتماعية وظواهر الاختلال الاجتماعي في انهيار الامن المجتمعي الذي بدا واضحاً من خلال ما عانت البلاد، من الممارسات الاجتماعية الخاطئة، واتخذ تعدي المماليك على اموال الناس طرقا عدة، منها ابتكارهم بدعة اخرى وهي عفاريت المحمل[3]

التي لم تتعرض لأحد بأذى خلال العصر المملوكي الاول، الا انه وبعد استقراء المصادر التاريخية، نجد ان الامر انعكس خلال العصر الثاني وصار المماليك الشراكسة يتمنون ان ينقضي يوم المحمل ويأتون من الارياف لمشاهدتها صاروا يبتهلون الى الله بزواله[4].

ومن الجدير بالذكر ان هؤلاء المماليك (عفاريت المحمل) اخذوا يركبون خيولهم وينال اهانتهم و فسادهم كل جليل وحقير، كبير او صغير، غني او فقير بالمجتمع المصري، فقد شهد عصر برسباي[5] سنة (831هـ/ 1427م) طلبا للعلماء بأبطال ادارة المحمل، وذلك للتخلص من فسادهم[6]، اذ ان عفاريت المحمل صاروا يصفعون اقفية من يمر بالشوارع ويحرقون لحاهم بالنار ويخطفون عمائمهم ويفعلون افعالا قبيحة[7].

ولم تتوقف ممارسات المماليك التي تتمحور في ممارسة العنف وخطف العمائم على سبيل المثال سنة (859هـ/ 1454م)، ثار جماعة منهم على

(1) المصدر نفسه، ج3، ص486؛ ابن اياس: بدائع الزهور، ج3، ص 295 – 312.

(2) ابن الصيرفي: نزهة النفوس، ج3، ص 340 – 341.

(3) اسم يستعمله الشعب المصري حيث كان يتقدم ركب المحمل في الحج جماعة من الممثلين الهزليين يؤدون ادوار تمثيلية امام الناس ومنهم من يثير مظهره الضحك، للمزيد: ينظر: لطفي احمد نصار: وسائل الترفيه في عصر المماليك، هيئة الكتاب، (القاهرة، 1999م)، ص 289.

(4) ابن الصيرفي: نزهة النفوس، ج3، ص155.

(5) برسباي بن عبدالله السلطان الظاهري الشركسي وهو الثامن من ملوك الشراكسة، تدرج في المناصب الى ان تولى السلطنة سنة (825هـ/ 1421م) توفي سنة (841هـ/ 1437م)، للمزيد: ينظر: ابن تغرى بردى: المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تحقيق محمد محمد امين و سعيد عبدالفتاح عاشور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (القاهرة، د. ت)، ج3، ص262-255.

(6) ابن حجر ابو الفضل احمد بن علي (ت 852هـ/ 1448م): انباء الغمر بأبناء العمر، تحقيق حسن حبشي، المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية، لجنة احياء التراث الاسلامي، (مصر، 1969م)، ج3، ص403.

(7) ابن الصيرفي: نزهة النفوس:ج3، ص 380 – 381.

الناس بالشوارع في القاهرة، وقد وصفت المصادر التاريخية تحركاتهم بانهم قاموا بأخذ العمائم والثياب وغير ذلك، ولم يكتفوا بذلك بل انزلوا الناس عن خيولهم وبلغ من اذاهم انهم اخذوا لحم الخيل، وتذكر المصادر ((انه حصل للناس بسبب ذلك الكثير من الضرر والاذى حتى تهيأت العامة لإيقاع الفعل بهم))[1].

وفي العقود الاخيرة من العصر المملوكي، نهى السلاطين عن عمل عفاريت المحمل، وسببه ما يفعلونه من القبائح وافحشوا في الطلب من الناس، وصاروا يدخلون الى دور الامراء والاعيان ويكلفونهم كلفة زائدة، بل انهم اذا مروا في الشارع وعلى فرسه وبهيئته المزعجة يجبي الدكاكين، واذا صادف مياسير التجار امسكه واخذ منه ما شاء غصبا، وان لم يعطه رماه عن فرسه، حتى صار الرجل اذا رأى واحدا من هؤلاء اسرع في مشيه بالدخول في زقاق من الازقة او بيت من البيوت، فضر ذلك بحال الناس كثيرا، وتركوا فرجة المحمل، بل صاروا يترقبون فراغ المحمل، ليستريحوا من تلك الانواع القبيحة[2]، وشجعت هذه الاضطرابات التي شهدتها القاهرة جماعات اخرى للتحرك مما يعكر الامن العام سواء في العاصمة او المناطق المجاورة لها، فاستغلت مجموعات من المنسر وهم عصابات مسلحة من اللصوص الذين يقومون بعملياتهم على ظهور الخيل ومترجلين، الذين كانوا يستغلون الاجواء المضطربة وضعف قبضة الدولة للقيام بعمليات السلب والنهب في القيسريات والاسواق[3].

وساعدت الازمات الاقتصادية والانفلات الامني في حدوث الفتن والاضطرابات، وبالتالي انعدام الامن في البلاد، الامر الذي ساعد على انتشار العصابات المتمثلة بالمناسر و الحرافيش الذين كثر عددهم في القاهرة، اذ كانوا يأتون من الارياف الى القاهرة، ونتيجة كثرة حدوث الازمات ازدادت اعدادهم بشكل كبير في العصر الشركسي ولاسيما ان القاهرة كان يتم فيها توزيع الطعام على الفقراء[4].

وعجز رجال الدولة عن ملاحقة المناسر والزعر في ظل غياب القانون، ففي سنة (922هـ/ 1516م) اصدرت الاوامر من السلطة بعدم خروج احد من بيته بعد العشاء، ولا يمشي بسلاح، وقد استمرت اعمال اللصوصية حتى بعد انهيار الدولة ودخول العثمانيين الى مصر[5]، وهذا ان دل على شيء انما يدل على الوضع السيء للأمن في البلاد، والدولة التي يتدهور بها الامن يختل نظامها الاجتماعي ويتدهور وضعها الاقتصادي.

كما أن وجود ظاهرة عدم الاستقرار في عصر المماليك الشراكسة في مصر، سواء سياسياً أو اقتصادياً أو اجتماعياً، سبباً أساسياً في الاضطراب

(1) السخاوي، شمس الدين محمد بن عبدالرحمن (ت 902هـ/ 1496م): وجيز الكلام في الذيل على دول الاسلام، تحقيق بشار عواد معروف واخرون، مؤسسة الرسالة، (بيروت، 1995م)، ج2، ص689؛ ابن شاهين، غرس الدين خليل (ت 920هـ/ 1514م): نيل الامل في ذيل الدول، تحقيق عمر عبدالسلام تدمري، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، ج5، ص439.

(2) ابن اياس: بدائع الزهور، ج16، ص123.

(3) ابن تغري بردي: حوادث الدهور، ج2، ص257 – 486؛ ابن اياس: بدائع الزهور، ج3، ص117 – 195.

(4) عثمان علي محمد عطا: الازمات الاقتصادية في مصر في العصر المملوكي واثرها السياسي والاقتصادي والاجتماعي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (مصر، 2002م)، ص212.

(5) ابن اياس: بدائع الزهور، ج5، ص 49 – 50 – 146 – 147.

الامني وحدوث النهب من الحرافيش والزعر، مما كان سببا في عدم الامان وفقدان الاستقرار، من، ذلك تعرض المنازل والاملاك الخاصة للسرقة والنهب، بسبب ضياع عنصر الامان، ومن هنا جاءت اهمية توفر طابع الطمأنينة الاجتماعية في جميع فترات الحكم المملوكي، بغض النظر عن مدى بروز سمة القوة في طبيعة السلطة القائمة اثناء هذه الحقبة او تلك[1].

وقد تحدثت المصادر التاريخية في هذا العصر عن كثير من الحوادث التي عبرت عن مظاهر التدهور الامني التي كان يثيرها العربان[2]، اذ تسبب هؤلاء في المتاعب واضطراب الاحوال والامن، وذكرت المصادر خروج الكثير من التجاريد لردعهم دون ادنى فائدة[3].

وقد يعود عدم الاستقرار الى فساد اصحاب السلطة، وعدم الجدية في معالجة ما يحدث لعامة الناس من النهب والقتل الذي يتعرضون له، ففي سنة (820هـ/ 1417م) اصبح السراق يفعلون ما يريدون ما داموا يدفعون المال لأصحاب السلطة من الولاة وغيرهم، ولا تقطع يد احد من السراق الا لأمرين اما القوة جاه المسروق منه، أو بسبب عجز السارق عن دفع المال للوالي، بل بلغ من فساد امراء الاطراف ما يزيد عن فساد امراء القاهرة ومصر، حيث انهم يقومون بأخذ من وجدوا معه غنماً أو ابلاً أو رقيقاً من الفلاحين او العربان او غيرهم من العامة، ولا يكتفون بأخذ اموالهم فحسب بل ويقوموا بقتلهم ايضا، كما يقوم اعوان الولاة بأخذ الاموال الناس بأبشع الوسائل، وقد نال الفساد حتى القضاة حيث يغرم الشاكي والمشكو عليه المال الكثير[4]، ان غياب الدور السياسي وتدهور الوضع الامني ادى إلى انتشار الظلم في المجتمع، فكثرت شكاوى الناس، وانتشر السلب والنهب، فوصل التدهور الامني وغياب دور الدولة الى حد سلب ثياب الرجال والنساء وكسرت ابواب البيوت والشبابيك والمنازل، وسرق خشب المساجد والمصاحف من المساجد واحرقت الاسواق[5]، وازداد عدد الاوباش وازداد نهبهم للدور، حتى انهم باعوا ما سرقوا من الملابس والحلال والمجوهرات وضح النهار[6]، ولم يقتصر تدهور الوضع الامني والسياسي داخل مصر على المنازل فحسب، بل شمل دور العبادة، وبيوت الصلاة، وتعدى الامراء على الكنائس وبيوت النصارى، واخذ ما فيها[7].

وهكذا ساهم فساد المماليك وانتشار السرقة مع غارات العربان وسوء الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية، والفساد الذي تطرق الى ادارة الدولة كلها ساهمت في تدهور الامن المجتمعي.

(1) حياة ناصر الحجي: احوال العامة في حكم المماليك، دار القلم، (الكويت، 1994م)، ص٣٤٦.

(2) هم قبائل دخلت الى مصر مع الفتح الاسلامي، وتنقسم الى بطون وافخاذ وعشائر عديدة، حازت على الكثير من الاقطاعات، للمزيد: ينظر: المقريزي: البيان والاعراب عما بأرض مصر من الاعراب، تحقيق عبدالمجيد عابدين، عالم الكتب، (القاهرة، 1961م)، ص153-125.

(3) ابن الصيرفي: ابناء الهصر، ص 9 - 10 - 37؛ ابن اياس: بدائع الزهور، ج3، ص 12 - 13 - 23 - 25 - 106؛ قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص252.

(4) المقريزي: السلوك، ج6، ص432.

(5) المصدر نفسه، ج5، ص237؛ عثمان علي محمد عطا: الازمات الاقتصادية، ص123.

(6) محمد سهيل طقوش: تاريخ المماليك، ص565.

(7) المقريزي: السلوك، ج7، ص438.

ثالثاً: اثر الاختلال في الانقسامات والتمردات

كان غياب الوحدة وحدوث الانشقاقات والاضطرابات وما يترتب عليها من التدهور احدى الاثار الناجمة عن ظواهر الاختلال الاجتماعي، والتي تؤثر على المجتمع تأثيرا مباشرا، فمهما بلغت الدولة من القوة، تظهر في طياتها بذور الضعف، ولاسيما النزاعات الداخلية بما يؤثر في نهاية الامر على قوة الدولة ككل، وضعف مركزيتها في الحكم، ومن خلال الاطلاع على المصادر التاريخية ولاسيما التي تعود إلى أواخر العصر المملوكي، تتكشف هذه الصراعات وقد تزامنت مع حدوث الكوارث الطبيعية من الاوبئة والحرائق، فضلاً عن الازمات الاقتصادية والمجاعات، ولكن حب السلطة والوصول إلى المناصب اعمى بصائر الكثيرين، ولم يعمدوا الى اصلاح الاوضاع في البلاد[1]، وكان للمتمردين والخارجين على القانون وغيرهم يستغلون الاحداث والاضطرابات فيعمدوا الى السلب والنهب لأملاك العامة والامراء، فأجتمع على البلاد شر الكوارث و التمردات وانتشر الفساد وسط المماليك، و انشغلوا باللهو وشرب الخمر ، مما مكن الامراء من التحكم في الدولة. ومحاولتهم المستمرة للانفصال، و تحكمهم المستمر بالسلاطين سواء بالقتل او السجن او العزل[2].

شهد عهد السلطان برقوق[3] حدوث تمردات من قبل المماليك التي ارهقت البلاد، ويصف ابن تغري بردي احوال القاهرة في ظل احداث الصراع بين برقوق ومنافسيه من الامراء، بانها تحولت إلى عاصمة دموية اشبه ما يكون بميدان قتال، حمل فيها العامة السلاح، واصبحت لهم اجتماعات وعصبيات واحزاب، واغلقت الاسواق، وكان الناس في خوف مما سيحل لهم في نهاية الامر، ((وبطل الحكم من القاهرة وصار الامر فيها لمن غلب))[4].

ادت التمردات التي قام بها المماليك على السلطان، ان اتبع السلطان برقوق سياسة عنيفة ضدهم، فعزل عدد كبير منهم، ونفى اخرين إلى الشام، الا ان هذه السياسة ادت الى ان يعمد هؤلاء المماليك الى اشارة حكام الشام على السلطان، لا سيما انهم بدأوا يتوصون خيفة من سياسة السلطان وعزلهم عن مناصبهم، فشعر السلطان بمؤامرتهم لا سيما ان يلبغا الناصري[5] نائب حلب قام سنة (787هـ/ 1385م) بأطلاق سراح سولي بن قراجا[6]، وكان عدو للسلطان، وعمد الى مساعدته

---

(1) مديحة الشرقاوي: برسباي وسياسته الداخلية والخارجية، الدار الثقافية للنشر، (القاهرة، 2008م)، ص 4 – 9.

(2) احمد عبدالرزاق محمد: عوامل انهيار دولة سلاطين المماليك، ص 171 – 172.

(3) ابو سعيد سيف الدين برقوق بن انص العثماني، اول سلاطين الشراكسة، تسلطن سنة (784هـ/ 1382م)، وتوفي سنة (801هـ/ 1399م)، للمزيد: ينظر: المقريزي: السلوك، ج5، ص427.

(4) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج11، ص276.

(5) يلبغا بن عبدالله الناصري الامير الذي تدرج في المناصب في عهد ابناء السلطان الناصر محمد بن قلاوون ولما تسلطن برقوق عزله وسجنه ثم افرج عنه واعاده لإمرة حلب حتى ثار عليه مرة اخرى سنة (791هـ/ 1388م)، للمزيد: ينظر: ابن حجر: الدرر الكامنة، ج4، ص264.

(6) سولي بن قراجا بن دلغادر التركماني، ولي نيابة ابلستين ومرعش، وصف بالشجاعة، توفي سنة(800هـ/ 1397م). للمزيد: ينظر: ابن حجر: الدرر الكامنة في اعيان المائة الثامنة، تحقيق محمد عبد

على الهرب الا ان السلطان عزله عن حلب وسجنه في الاسكندرية[1]، وفي سنة (788هـ/ 1386م) واجه السلطان مؤامرة اخرى، اشترك فيها اربعة من الفقهاء في دمشق، التي علم بها السلطان، فما لبث ان واجه القائمين عليها، بتهمة الدعاء لإمام قريش، فأجابه كبيرهم: انه غير اهل للقيام بأمر المسلمين الا امام قريش[2]، استمر برقوق بسياسته العنيفة تجاه المماليك، وادت هذه السياسة الى تمرد جديد اذ تحالف المماليك الاشرفية مع اليلبغادية، وذلك عندما اخذ تمريغا الافضلي المعروف بمنطاش (ت 795هـ/ 1392م) نائب ملطية[3]، بجمع الترك لإعلان العصيان ضد السلطان ، فعلم السلطان بسوء نية منطاش بعد تقصي الاخبار في الشام[4]، فأطلق سراح يلبغا الناصري واعاده الى نيابة حلب، الا انه ارتكب خطأ كبيرا اذ سرعان ما اعلن منطاش عصيانه بمجرد مغادرة يلبغا القاهرة سنة (790هـ/ 1388م) بعد أن تجمع عدد كبير من الاشرفية، وانضم إليها برهان الدين احمد[5] صاحب سيواس وقرر نائب البيرة الانضمام اليهم[6].

فما كان من السلطان الا ان يقبض على عدد كبير من الشراكسة، لفقدهم الثقة في برقوق، اما يلبغا الناصري فقد اتصل بمنطاش سرا للتحالف معه ، فعلم السلطان بذلك فحاول بدهائه التخلص من يلبغا، لذا كتب السلطان الى يلبغا يطالبه بالصلح مع سودون المظفري (ت 791هـ/ 1389م) وكان بينه وبين يلبغا عداء مستحكم، وفي نفس الوقت ارسل السلطان الى سودون وبعض امراء حلب بالقبض على يلبغا وقتله في اجتماع الصلح، غير ان يلبغا علم بتفاصيل المؤامرة، فأستدرج سودون الى دار السعادة بحلب، و انقض عليه هو ومماليكه وقتله، وكان ذلك سنة (791هـ/ 1389م)[7]، اصبحت مدن الشام في طاعة يلبغا ومنطاش، اللذان قاما بمحاصرة دمشق وتمكنا من الاستيلاء عليها، فوصلت الانباء الى مصر في وقت كانت فيه الاوضاع في شدة السوء، بسبب انتشار الطاعون والفساد، واغلقت الاسواق ايام ذلك اصبح موقف برقوق محرجا للغاية لا سيما بعد انضمام اينال اليوسفي[8] نائب دمشق الى يلبغا وتقدمها نحو الرملة والاستيلاء عليها، فما كان من السلطان الا اتخاذ بعض الاجراءات منها استرضاء الخليفة العباسي واعاد اليه اقطاعه، وامر بإبطال

المعيد خان، دائرة المعارف العثمانية، (الهند، 1972م)، ج2، ص 328.

(1) المقريزي: السلوك، ج5، ص 176 – 177.

(2) المصدر نفسه، ج5، ص191.

(3) ملطية: تقع شمال حلب من بلاد الثغور، مدينة بناها الاسكندر المقدوني، وتعد احدى مدن الروم متأخمة لبلاد الشام، و كانت احدى نيابات الدولة المملوكية، للمزيد: ينظر: ياقوت الحموي، ابو عبدالله شهاب الدين (ت 626هـ/ 1228م): معجم البلدان، ط2، دار صادر، (بيروت، 1995م)، ج5، ص292.

(4) الصيرفي: نزهة النفوس، ج1، ص203؛ حكيم امين عبد السيد: قيام دولة المماليك الثانية، تقديم محمد مصطفى زيادة، الدار القومية للطباعة والنشر، (القاهرة، 1966م)، ص 64.

(5) برهان الدين احمد بن عبدالله، حاكم سيوس، و قاضيها الحنفي، قدم الى حلب، واشتغل بها، ودخل القاهرة، قتل على يد الامير التركماني قراملك، للمزيد: ينظر: الغزي: الطبقات السنية في تراجم الحنفية، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو، دار الرفاعي للنشر والطباعة، (الرياض، 1983م)، ج1، ص112.

(6) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج6، ص129.

(7) ابن حجر: انباء الغمر، ج1، ص385.

(8) اينال اليوسفي: وهو من ابرز الامراء عند الظاهر برقوق، توفى سنة (794هـ/ 1391م). للمزيد: ينظر: السخاوي: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، منشورات دار الحياة، (بيروت، د. ت)، ج2، ص329.

المكوس على مصر، واخذ يستعد بحفر خندق حول القلعة، وتوعير الطريق المؤدي اليها، وأمر الناس بالاستعداد للحصار[1]، اما يلبغا فقد وصل الى قاطية[2]، فانظم اليه جماعة من الشراكسة مما يدل على ما وصلوا اليه من عدم الاخلاص، مما شجع يلبغا التقدم نحو القاهرة، فوصل الى بركة الحجاج، وعندما رأى برقوق ضعف موقفه وعدم استطاعته السيطرة على الوضع داخل القاهرة وانضمام الشراكسة الى يلبغا، فقرر ان يعزل نفسه، وقام يلبغا بتشتيت الشراكسة للتقليل من مكانتهم في الشام، الا انه خدم برقوق في ذلك، لأنهم انضموا الى برقوق، بعد أن وجدوا أن يلبغا قد استثار بالحكم مع مماليكه، الامر الذي اثار منطاش ضده، ليصبح النزاع بينهما، وتمكن منطاش بعد ذلك من القبض على يلبغا عند بسريا قوس [3] وحبسه مع عدد من اعوانه بالاسكندرية[4]، وبنفس الوقت اضطربت الاوضاع في الشام بعد أن اتفق امير العرب نعير بن مهنا[5] مع سولي بن دلغادر امير التركمان على نهب حلب، فكانت الامور في صالح برقوق، كما حرض نائب دمشق نواب الشام لمساندته ضد منطاش لما فعله بيلبغا الناصري، واراد منطاش قتل السلطان الا ان برقوق احبطها، وانتهى الامر باشتباك بين منطاش وبرقوق بعد أن انضم الاخير نائب الوجه القبلي، وتمكن برقوق من حصار دمشق سنة (792هـ/ 1390م) وتغلب على منطاش وتم مبايعة السلطان برقوق وعاد الى الصالحية بنفس السنة[6]، وكان من الطبيعي ان يكون لهذه التمردات والفتن اثر سلبي على المجتمع سواء في مصر او بلاد الشام، اذ انها تعبر عن غياب الوحدة التي من شأنها نشر الخوف والفزع والهلع بين صفوف الناس، خشية من تلك الفتن وما يسفر عنها من تأثيرات وخيمة ربما يكون لها انعكاسات سيئة على عامة الناس، فتكالب الناس على شراء الغذاء خوفا من انقطاع الطعام او ارتفاع الاسعار، فضلاً عن المغارم التي تفرضها الدولة على الرعية، وقد عبر المقريزي عن خطر هذا الصراع بقوله ((تزايد خوف الناس وقلقهم، وشرعوا في عمل الدروب وشراء الاقوات، والاستعداد للقتال والحصار، وكثر كلام العامة وانتقاصهم للدولة، وتجمع الزعر والدعار، ينتظرون قيام الفتنة، لينهبوا الناس))[7].

ومن جهة اخرى تمرد عرب هوارة[8] سنة

(1) المقريزي: السلوك، ج5، ص223.

(2) قاطية: وهي احدى القرى التي تقع بين مصر والشام، للمزيد: ينظر: محمد رمزي: القاموس الجغرافي للبلاد المصرية، دار الكتب المصرية، (القاهرة، 1953م)، ص42.

(3) سرياقوس: بليدة في نواحي القاهرة بمصر، للمزيد: ينظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج3، ص218.

(4) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج11، ص340.

(5) نعير بن مهنا وهو محمد بن حيار بن مهنا بن مانع بن حديثة، شمس الدين المعروف بنعير من بني فضل بن ربيعة، من طئ ويعد امير عرب الفضل والشام والعراق، ولي الامارة بعد ابيه سنة (777هـ/ 1375م)، وكان شجاعا الا انه كثير الغدر والفساد، للمزيد: ينظر: الزركلي: الاعلام، ج6، ص111.

(6) المقريزي: السلوك، ج5، ص 279 – 280.

(7) المصدر نفسه، ج5، ص223.

(8) هوارة: وهي قبيلة تنتشر بشكل واسع بالشمال الافريقي وبلاد الشام و الاندلس وصقلية، وتنسب الى هوار بن اوريخ بن يونس، ومنهم من يقول انهم ينسبون الى هوار بن المثنى المرور بن يخصب، وهي قبيلة بربرية، ومنهم من يقول انهم من كندة ومنهم من يقول انهم احد بطون قضاعة، وتوجد قبيلة بمصر تحمل اسم هوارة، فلابد ان يكونوا قد رحلوا الى مصر، للمزيد: ينظر: ابن خلدون، عبدالرحمن (ت 808هـ/ 1405م): العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر

(798هـ/ 1396م) على السلطان برقوق وامتنع اميرهم علي بن غريب من دفع ما كانوا يدفعونه سنويا من العربات والخيل، فقبض عليهم وتم سجنهم، مما ادى الى ثورة عرب هوارة، فقتلوا نائب الوجه القبلي، وزحفوا الى اسوان، وفر نائبها الى بلاد النوبة[1]، الا ان السلطان تمكن سنة (801هـ/ 1399م) من القضاء على تمرداتهم، ونثبت دعائم حكمه.

وشهد عهد السلطان فرج بن برقوق تمردا قام به يلبغا المجنون[2]، الذي اعلن العصيان في دمياط سنة (802هـ/ 1400م) وافرج عن امراء الشام المحبوسين ونقلهم الى الاسكندرية، ثم وصل الى ديروط، وكتب إلى نائب البحيرة الثانية بخيول الطواحين، كما قصد مدينة دمنهور فقبض على واليها وحصقت له العربان وكثرة مجموعة[3]، اتجه بعدها الى الغربية ودخل المحلة الكبرى ثم الى الشرقية، وسار حتى وصل العباسة[4]، حتى اقترب من القاهرة، واضطربت احوالها واغلقت الابواب وحبست الخيول، فأتجه الى قطيا، وبعدها حدثت معركة بينه وبين جيش السلطان فهزم واتجه الى الصعيد وانهى امره بان مات غريقا واكل السمك وجهه[5].

واستمرت سلسلة التمردات التي قام بها العربان بل انها زادت ولم يكونوا راضين عن اي سلطان يتولى الحكم، ولم يكن كل السلاطين يحاولون ارضاء الجلبان، بل ان بعضهم حاول القضاء على نفوذهم على اثر اعتدائهم المتكرر على العامة، ففي عهد السلطان برسباي حاول القضاء على نفوذهم و محاربتهم، بسبب اعتدائهم على العامة والامراء ونهب المنازل، الا انه عجز عن ذلك وقال ((قد عجزت عن اصلاحهم ثم كشف رأسه ودعا عليهم بالموت))[6]، ونظرا لعجز السلاطين والامراء عن منع الجلبان من اعتدائهم المتكررة، قام المصريون بحماية انفسهم بأيديهم، اذ الحق بهم الكثير من الضرر والاذى، ودليل ذلك ان السلطان الغوري اصدر امرا سنة (921هـ/ 1515م) بعدم التعرض لمماليكه، وانعكس ذلك على امن البلاد، وكان سببا في ضعف الدولة المملوكية الثانية، بل وضعف السلاطين، مما يدل على غياب الوحدة فبدلا من توحيد الجهود في ظل السلاطين قاموا بتهديد هم خوفا على العرش[7].

ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر، تحقيق خليل شحاذه، دار الفكر، (بيروت، 1981م)، ج6، ص182.

(1) ابن دقماق، صارم الدين ابراهيم (ت 809هـ/ 1406م): الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين، تحقيق محمد كمال الدين، عالم الكتب، (بيروت، 1985م)، ج2، ص23.

(2) يلبغا المجنون: يلبغا الاحمدي الظاهري المعروف بالمجنون تولى الاستدارية، قتل سنة (802هـ/ 1399م). للمزيد: ينظر: ابن تغرى بردى: المنهل الصافي، ج3، ص332؛ ابن اياس: بدائع الزهور، ج1، ق2، ص586.

(3) المقريزي: السلوك، ج6، ص30؛ ابن حجر: انباء الغمر، ج2، ص104.

(4) العباسة: وهي اول ما يلقى الخارج من مصر الى الشام، وسميت بذلك نسبة إلى عباسية بنت احمد بن طولون، من قرى ابو حماد الشرقية، للمزيد: ينظر: محمد رمزي: القاموس الجغرافي، ج1، ق2، ص69.

(5) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج12، ص214؛ ابن اياس: بدائع الزهور، ج1، ق2، ص586.

(6) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج14، ص326.

(7) سعيد عبد الفتاح: العصر المماليكي ، ط2، دار النهضة العربية، (القاهرة، 1976)، ص 185 – 186.

المصادر والمراجع

اولاً: المصادر الاولية:

- ابن اياس، محمد بن اياس (ت 930هـ/ 1523م).

1- بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (القاهرة، 1982م).

- ابن تغرى بردى، ابو المحاسن جمال الدين يوسف (ت 874 هـ/ 1443م).

2- حوادث الدهور في مدى الايام والشهور، تحقيق محمد كمال الدين، عالم الكتب (بيروت، 1990م).

3- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب المصرية (القاهرة، 1956م).

4- المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تحقيق محمد محمد امين، وتقديم سعيد عبد الفتاح عاشور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (القاهرة، د.ت).

5- مورد اللطافة فيمن ولي السلطنة والخلافة، تحقيق نبيل محمد عبد العزيز، دار الكتب المصرية، (القاهرة، د.ت)

- الجبرتي، عبدالرحمن بن حسن (ت 1237هـ/ 1821م) .

6- تاريخ عجائب الاثار في التراجم والاخبار، دار الجيل، (بيروت، د.ت).

- ابن حجر، ابو الفضل أحمد بن علي (ت 852هـ/ 1448م) .

7- انباء الغمر بأبناء العمر، تحقيق حسن حبشي، لجنة احياء التراث الاسلامي، (مصر، 1969م).

8- الدرر الكامنة في اعيان المائة الثامنة، تحقيق محمد عبد المعيد خان، دار المعارف العثمانية، (الهند، 1972م).

- ابن خلدون، عبد الرحمن (ت 808هـ/ 1405م).

9- العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر، تحقيق خليل شحاذة، دار الفكر، (بيروت، 1981م).

- ابن دقماق، صارم الدين ابراهيم (ت 809 هـ/ 1409م).

10- الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين، تحقيق محمد كمال الدين عز الدين، عالم الكتب، (بيروت، 1985م).

- السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (ت 902هـ/ 1496م).

11- الضوء اللامع، لأهل القرن التاسع، دار الحياة، (بيروت، د.ت).

12 - وجيز الكلام في الذيل على دول الاسلام، تحقيق بشار عواد معروف واخرون، مؤسسة الرسالة، (بيروت،1995م).

- ابن شاهين الظاهري، غرس الدين خليل (ت 920هـ/ 1514م).

13- نيل الامل في ذيل الدول، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، المكتبة المصرية للطباعة والنشر، (بيروت،2002م).

ابن الصيرفي، علي بن داود(ت900هـ/ 1494م).

14- انباء الهصر بأبناء العصر، تحقيق حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة (مصر،2002م).

15- نزهة النفوس والابدان في تواريخ الزمان، تحقيق حسن حبشي، دار الكتب، (القاهرة، 1971م).

- الغزي، تقي الدين عبد القادر (ت 1010هـ/ 1601م) .

16- الطبقات السنية في تراجم الحنفية، تحقيق

عبد الفتاح محمد الحلو، دار الرفاعي للنشر والطباعة، (الرياض، 1983م).
- المقريزي، ابو العباس تقي الدين احمد بن علي (ت 845هـ/ 1441م).

17- اغاثة الامة بكشف الغمة، تحقيق حلمي فرحات، عين للدراسات والبحوث، (القاهرة، 2007م).
18- البيان والاعراب عما بارض مصر من الاعراب، تحقيق عبد المجيد عابدين، عالم الكتب، (القاهرة، 1961م).
19- السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية،(بيروت، 1997م).
20- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار، دار الكتب العلمية، (بيروت، 1418هـ).
- ياقوت الحموي، ابو عبد الله شهاب الدين (ت 626هـ/ 1228م).

21- معجم البلدان، ط2، دار صادر، (بيروت، 1995م).

ثانياً: المراجع الثانوية:

- ا. س ترتون.

22- اهل الذمة في الاسلام، ترجمة حسن حبشي، دار الفكر العربي، (القاهرة، 1949م).
- احمد عبد الرزاق محمد.

23- عوامل انهيار دولة سلاطين المماليك في مصر، عين للدراسات والبحوث، (مصر، 2017م).
- جان سوفاجيه.

24- دمشق الشام، المطبعة الكاثوليكية، (بيروت، 1936م).
- حكيم امين عبد السيد.

25- قيام دولة المماليك الثانية، تقديم محمد مصطفى زيادة، الدار القومية للطباعة والنشر، (القاهرة، 1966م).
- سعيد عبد الفتاح عاشور.

26- العصر المماليكي في مصر والشام، ط2، دار النهضة العربية، (القاهرة، 1976م).
27- المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، دار النهضة العربية، (القاهرة، 1992م).
28- مصر في عصر دولة المماليك البحرية، مكتبة النهضة المصرية، (القاهرة، 1959م).
- شفيق عبدالرزاق ابو سعدة.

29- شعر الخصاصة في شعر العصر المملوكي، دار الطباعة المحمدية، (القاهرة، 1991م).
- عثمان علي محمد عطا.

30- الازمات الاقتصادية في مصر في العصر المملوكي، الهيئة المصرية العامة، (القاهرة، 2002م).
- علاء طه رزق.

31- السجون والعقوبات في مصر عصر سلاطين المماليك، عين للدراسات والبحوث، (مصر، 2014م).
- عماد بدر الدين ابو غازي

32- تطور الحياة الزراعية، زمن المماليك الجراكسة، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، (مصر، 2000م).
- قاسم عبده قاسم.

33- عصر سلاطين المماليك، عين للدراسات والبحوث، (مصر، 1998م).
- مديحة الشرقاوي.

34- برسباي وسياسته الداخلية والخارجية، الدار الثقافية للنشر، (القاهرة، 2008م).

● محمد رمزي.
35- القاموس الجغرافي للبلاد المصرية، مطبعة دار الكتب المصرية، (القاهرة، 1953م).
● محمد سهيل طقوش.
36 - تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، دار النفائس، (بيروت، 1997م).